

الفصل الثاني

العربية الفصحى.. وكيف تكونت؟

من المعروف أن العرب - لاختلاف قبائلهم، وتعدد لهجات بطونها - قد اجتمعوا - في جاهليتهم - على أن تكون لهم لغةً مثالية ومصطفاه جديدة بأن تكون أداة التعبير عند خاصتهم لا عامتهم، يصوغون بها فنون التفكير، ويلتزمون بها في المجال الجدي من القول، ويلجأون إليها في المناسبات ومواسم الحج والأسواق.

فلما جاء الإسلام قوى من تلك الوحدة اللغوية، وشد من أزرها بنزوله بها، ومع ذلك فقد ظل لكل قوم من قبائل العرب تعبيرهم الخاص بهم كما كان الحال عليه في الجاهلية^(١)، ولكنه كان في هذه المرة أقل عنفوانا وشدة، فقد شجع الدين الجديد جميع العرب على التزام لغة موحدة خوطبوا عن طريقها بنظمه وآدابه وقوانينه.

إلا أنه يجب ألا يفهم من ذلك إلزام العرب بما لا يطيقون، أو تكليفهم بما لا يستطيعون، فجميع الدلائل تؤكد على أن الفترة التي سبقت نزول القرآن الكريم بهذه اللغة كانت مواتية لتقبل هذا الحدث اللغوي العظيم.

«فلقد نضج الوضع اللغوي وأصبح محتاجاً لمن يثبت له مزيداً من التقارب وتشابك العلاقات بين جميع لهجات قبائل العرب، ولا يمكن لعاقل أن يفكر في اختلاف اللهجات العربية إلا وفكر في إمكان اتحادها»^(٢).

فالشكل الذي قامت عليه حياة العربي داخل جزيرته كان يدعوه - ولا ريب - إلى التواصل والاجتماع بغيره، وكل ذلك يستدعي تقارباً لغوياً واندماجاً لهجياً تتآلف فيه الخصائص المتنافرة وتقل معه الفروق فتتغلب بعضها على بعض لتظهر -

(١) صبحي الصالح - مباحث في علوم القرآن ص ١١٤ - بتصرف.

وفي اللهجات العربية - إبراهيم أنيس - ص ٤٠ . بتصرف أيضاً.

(٢) الرافعي - تاريخ آداب العرب ٣ : ٧١ .

مع مرور الوقت- في أقرب صور الانسجام والتلاقي وهو ما حدث لهذه العربية قبل الإسلام.

لذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث توحيد لهذه اللهجات التي كانت تعيش مع قبائلها في جزيرة العرب على امتدادها وعرضها في فترة من فترات حياتها، ويستوى حينئذ أن تكون قد حدثت قبل نزول الوحي بقليل أو قبله بزمان طويل. إلا أن الأمر كان أكثر وضوحاً بحصول هذا الحدث الإنساني العظيم، فلقد عاشت اللهجات العربية جنباً إلى جنب داخل الجزيرة العربية ونقول: إنها قد تقاربت - عبر حقب التاريخ الطويلة- إلا أن تقارباً كالذي حدث بعد ظهور الإسلام لم يحدث فيما حدثنا به اللغويون من آثار هذه اللغة، وإذا كانت العصور التاريخية في هذا الخصوص لا تُقاسُ أبداً إلا بأثر الأحداث الإنسانية فقد كانت بعثة الرسول ﷺ كافية لأن توحّد هذه اللهجات في لغة واحدة مشتركة مضت عليها فترات متعددة دون أن تصهرها على هذا النحو الذي ظهرت عليه العربية بعد الإسلام^(١).

ومع ذلك ندعي أن لغةً موحدة كانت قد دانت لها قبائل العرب في جاهليتها، وصدرت عنها آدابها وفنونها الرفيعة التي تمثّلت فيما وصل إلينا من آثار الجاهليين في مدة لا تزيد عن القرنين قبل الإسلام، وظهرت بكل جلاء -في لغة القرآن الكريم الذي صور وضع هذه اللغة في أتم صورة وأبينها مما لا نجده حتى فيما صح من تلك الآثار المنسوبة إلى العصر الجاهلي..

والباحثون قد اختلفوا في حقيقة هذه اللغة، وإلي أي قبائل العرب تنتمي؟

١- مجموعة ترى: أن هذه اللغة التي كان من أمرها ما كان قبل الإسلام وفُرِضَتْ بعده بعد اقترانها بالدين الجديد: إنما هي لهجة قريش من بين سائر قبائل العرب ويستند هذا القول على آراء قالها القدماء وسار على نهجها بعض المحدثين: فمن القدماء:

قتادة «ت- ١١٧هـ»: «الذي ذهب -فيما نقل عنه- إلى أن قريشاً أفصح العرب وبلسانها نزل القرآن الكريم وذلك لأنها كانت تختار أفضل لغات العرب^(٢).

(١) جيسرسن -اللغة بين الفرد والمجتمع ٦٩ بتصرف- فقه اللغات السامية ٣٠ بتصرف..

(٢) مجلة الدارة ع ١ س ٧ لعام ١٤٠١هـ، ص ١٧٦.

وابن فارس «ت- ٣٩٥هـ»: «إذ يقول: «أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقزوين قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن عباس الخشكي قال: حدثنا إسماعيل بن عبيد الله قال: أجمع علمائنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغةً، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ، فجعل قريشاً قُطَّانَ حرمة وجيرانَ بيته الحرام وولاته، فكانت وفودُ العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وتسميها أهلَ الله؛ لأنهم الصريحُ من ولد إسماعيل -عليه السلام- لم تشبههم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبتهم ناقلة، فضيلةً من الله -جل ثناؤه- لهم تشريعاً إذ جعلهم رهطَ نبيه الأذنين وعشرته الصالحين، وكانت قريش -مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها- إذا أتتهم الوفودُ من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة قيس، ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل تعلمون ونعلم ومثل شعير وبكير؟»^(١).

«وقد قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمي «بالألفاظ والحروف»: كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانةً عما في النفس»^(٢).

أما المحدثون: فمنهم طه حسين فقد قال: «أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدُها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش فما نرى أنه يحتمل شكاً أو جدالاً، فقد أجمع العرب على ذلك بعد الإسلام، واتفقت كلمة علمائهم ورواتهم ومحدثيهم ومفسريهم على أن

(١) الصاحبى في فقه اللغة: ٣٣، المزهر: ١: ٢١٠.

(٢) المزهر: ١: ٢١١.

القرآن نزل بلغة قريش، أو قل على أن هذا الحرف الذي بقي لنا من الأحرف السبعة إنما هو حرف قريش، وقد يكون من التكلف والتحذق أن يجمع العرب كافةً على أن لغة القرآن هي لغة قريش، وألا يظهر في العصر الإسلامي الأول ولا في أيام بني أمية ولا في أيام بني العباس من ينكر هذا أو يجادل فيه رغم ما كان من الشعوبية الحميرية ومن الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر ثم يزعم زاعم أن هذه اللغة ليست لغة قريش، وإنما هي لغة قبيلة أخرى مهما تكن هذه القبيلة.

ويقول في موضع آخر: أما أن هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدتها في القرآن والحديث وما وصل إلينا من النصوص المعاصرة للنبي وأصحابه لغة قريش فما نرى أنه يَحْتَمِلُ شكًا أو جدالاً فقد أجمع العرب على ذلك...، فنحن مضطرون أمام هذا الإجماع من جهة وأمام قريشة النبي من جهة أخرى وأمام نزول القرآن في قريش من جهة ثالثة وأمام فهم قريش للفظ القرآن في غير مشقة ولا عنف من جهة رابعة وأمام اتفاق القرآن في اللغة واللهجة مع ما صح من حديث النبي القرشي ومن الرواية عن أصحابه القرشيين من جهة خامسة إلى أن نسلم بأن لغة القرآن إنما هي لغة قريش... وقد سادت قبيل الإسلام^(١).

٢- وأخرى ترى: أن هذه اللغة إنما هي لهجات لبعض قبائل عربية وحدث بينها تكاليف الحياة وتكررت لقاءاتُ أبنائها فتوحدت بذلك لغاتها لتظهر في هذه اللغة العربية الفصحى التي نجدتها بأوضح صورة في لغة التنزيل ثم اختلفوا بعد ذلك في حقيقة لهجات تلك القبائل، ومن هي؟

على النحو التالي:

أ- فمن قائل: إنها ترجع إلى سبع لغات، خمس بلغة العجز من هوازن وهم الذين يقال لهم: عليا هوازن وهي خمس قبائل أو أربع منها سعد بن بكر وجشم ونصر بن معاوية وثقيف^(٢).

(١) في الأدب الجاهلي: ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) الصاحبى في فقه اللغة: ٤١.

ب- وذهب أبو عبيدة «ت- ٢٢٣هـ» إلى أن في القرآن لهجات: لهجة قریش ولهجة هذيل ولهجة هوازن ولهجة يمن، ولبعضها نصيب كبير فيه^(١).

ج- ومن قائل: أنها ترجع إلى لغات قبائل مضر خاصة وهي هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسد بن خزيمة وقریش^(٢).

د- ومن قال إنها مزيج مختلط من لهجات تكلم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها كاليمامة غير أن الشعراء قد أدخلوا عليها تغييرات عديدة، وهو مذهب بعض المستشرقين كغويدي، وفيشر^(٣).

هـ- وذهب المستشرق بلينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بالبراعة في نظم القصيد والتي تردّد إليها النحاة وعلماء اللغة في الإسلام ليتعلّموا من أهلها صحة النطق بالحروف أو المعاني الغربية والشواهد لقواعد النحو وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد، ويرى أن هذه اللهجة تولّدت من إحدى اللهجات النجدية وتهذبت في مملكة كندة وفي أيامها فصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب^(٤).

٣- وبعضهم يرى: أن هذه اللغة: إنما هي مزيجٌ مختلط من جميع لهجات قبائل العرب شرقها وغربها شمالها وجنوبها ووسطها تلاقت جميعها على صعيد واحد نتيجة تلاقي أصحابها بعضهم ببعض بتكرار لقاءاتهم واجتماعاتهم في أسواقهم ومواسمهم وظروف حياتهم المختلفة التي تدعوهم لعقد الصلات والتّسام الشمل والتغلب على أسباب النزاع وبند الخلاف، فالتقت لغاتهم وتقاربت فيما بينها بعد أن تأكلت الفروق الطفيفة التي كانت تفصلها بعضها عن بعض، ومع مرور الوقت وتكرار التلاقي تكونت بذلك لغة مشتركة تجمع عناصرها من جميع تلك اللغات وتوحد بين خصائصها، فكانت أن ظهرت في شكل هذه اللغة العربية الفصحى^(٥).

(١) مجلة الدارة ع ١ س ٧ لعام ١٤٠١هـ ص ١٧٩.

(٢) صبحي الصالح- مباحث في علوم القرآن ١٠٥.

(٣) مجلة الدارة ع ١ س ٧ عام ١٤٠١هـ ص: ١٨٧.

(٤) مجلة الدارة ع ١ س ٧ عام ١٤٠١هـ ص: ١٨٦.

(٥) إسرائيل ولغنسون- تاريخ اللغات السامية- ١٦٦.

٤- وهناك من قال بالوجهين بناء على ما صح عنده من رأى وأيدته فيه البراهين والحجج فقالوا مرة: إنها لهجة قريش فحسب، وتوسطوا حيناً فبينوا المراد من تلك التسمية «اللغة الحجازية أو القرشية» وكشفوا عن بعض الحقيقة -بناءً على ما توفر لهم من أدلة- في أصل وجود هذه اللغة.

فإذا وجدنا بعضهم يقول: «والعربية الباقية يرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير، وهي تمثل اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة في التطور والارتقاء، وبعد أن تغلبت لهجة من لهجاتها وهي لهجة قريش واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابها ونثرها في مختلف القبائل العربية، فقد أتيح للهجات هذه القبائل المتعددة فرص كثيرة للاختلاط بفضل التجارة وتبادل المنافع ومجاورة القبائل العربية بعضها لبعض وتنقلها في طلب الكلاء وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية...، فاشتبكت من جراء ذلك اللهجات العربية مع بعضها في صراع لغوي كُتب النصر فيه للهجة قريش، فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابها ونثرها في مختلف القبائل العربية فأصبح العربي أياً كانت قبيلته يؤلف شعره وخطابه ونثره الأدبي بلهجة قريش، وقد ساعد على تغلب هذه اللهجة عوامل دينية واقتصادية وسياسية واكتمال ذاتي في مقومات هذه اللهجة وهو مما انعدم بعضه لسواها من اللهجات العربية الأخرى»^(١).

نجد بعد وقت قصير من تصريحه بمذهبه ذاك يقول:

... تضافرت عوامل كثيرة على النهوض بلغة قريش وتوطيد قدمها وتمكينها من ألسنة العرب وتوسيع نطاق إنتاجها... .

فقد أفادت لغة قريش من احتكاكها باللهجات العربية الأخرى آثاراً كثيرة من هذه اللهجات، ونقل إليها طائفة كبيرة من مفرداتها وأساليبها وخاصة في النواحي التي كانت تعوزها، ففويت بذلك واتسع نطاقها وكمل ما كان فيها من نقص، وزادت مرونة وقدرة على التعبير عن مختلف فنون القول، غير أنها لم تقف في اقتباسها

(١) وافي: فقه اللغة ١٠٧.

عند الأمور التي كانت تعوزها، بل انتقل إليها كذلك من هذه اللهجات كثيرٌ من المفردات والصيغ التي لم تكن في حاجة إليها لوجود نظائرها في مستنها الأصلي، وإلى هذا ترجع بعض العوامل في غزارة مفردات هذه اللغة وكثرة مترادفاتهما، وورود جمع الكلمة الواحدة فيها على صيغ متعددة، وقبولها أوزاناً كثيرة للفعل الواحد، فما أشبه الحالة التي انتهت إليها لغة قريش ببسيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى مختلفة الطعم واللون انحدرت إليها من جداول كثيرة^(١).

وقد تبلغ به الحيرة متتهاها عندما يقرر: بأنه لا يمكننا على ضوء معلوماتنا الحاضرة أن نميز بين ما كان قرشي الأصل، وما انتقل إلى لغة قريش من أخواتها لأننا نجعل ما كانت عليه لهجة قريش واللهجات العربية الأخرى في أدوارها الأولى جهلاً يكاد يكون تاماً، فلهجة قريش لم تصل إلينا إلا وهي متأثرة بما عداها من اللهجات العربية التي قهرتها، وهذه اللهجات لم يصل إلينا منها شيء قبل تغلب لهجة قريش عليها، ولم يبق منها في المحادثة بعد تغلب هذه اللهجة عليها إلا النزر اليسير^(٢).

أيقنا -بعد التدقيق في مراده- أنه يقصد بلهجة قريش هذه تلك اللغة التي استقرت في نواحي الحجاز قبيل ظهور الإسلام، والتي اصطنع بها ما وصل إلينا من آثار في العصر الجاهلي، بعد أن ضاعت معالم هذه اللهجة القرشية الأصلية، واختلطت في خضم هذا الزخم الهائل من اللهجات العربية الوافدة على القرشية في عُقر دارها، فأقبل القوم يصنفون ويوائمون ويختارون ويهذبون ويدنون ويقصون إلى أن تكونت هذه العربية الفصحى، وشاعت في بلادهم، ولو لم يكن لقريش من فضل فيها سوى الانتقاء والاصطفاء لحق لها أن تُنسب إليها تجاوازا ولو لم تكن هي لغتها الأصلية.

وعلى هذا يحمل قوله على القبول وإن فاته النص على ذلك، والاضطراب نفسه نجده أيضاً عند من ذهب إلى «أن لغة قريش قد أتيح لها أن تتبوأ المكانة

(١) وافي - فقه اللغة: ١١٤.

(٢) وافي - فقه اللغة: ١١٦.

الأولى بين اللهجات العربية الشمالية فأصبحت هي الفصحى المقصودة عند الإطلاق وقد زادها نزول القرآن بها مكانة ومجداً»^(١).

«وأن العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها، فصدق على لهجة قريش ما يصدق على كل اللغات من قوانين التأثير والتأثير... وطبيعي أن تُتَّخَذَ لغةُ الحجاز مقياساً للفصاحة وقد بلغت من الرقي داخل الجزيرة العربية مبلغاً حميداً حين خلت من مستقبح اللغات ومستهجن الألفاظ، إن الباحث يكاد يرى هذا المقياس صحيحاً لا مغمز فيه بل بديهيّاً لا مسوغ لردّه»^(٢).

إلا إننا نجدّه يصرح: بأن العربية - بصورتها الحالية - قد أسهمت في تكوينها اللهجات العربية قاطبة... ، فظاهرة التأثير بين اللهجات الصحيحة المسموعة من العرب قد آلت بالفصحى إلى ضرب من التوحد في الخصائص، والتماثل في السمات والملامح، حتى لكأن هاتيك اللهجات وهي في طريقها إلى التلاقي والتقارب لم تك إلا جداول تجري رخاء في مسالكها ثم تنتهي باطمئنان إلى الانصباب في نهر واحد غزير قادها نحو دليل لا يضل ولا ينسى^(٣)... ، فإن هذه الخصائص لا تميز لغة قريش لذاتها بل لتمثلها خيراً ما في اللهجات العربية الصحيحة بالتوليد والاشتقاق وخير ما في اللغات الأجنبية بالنقل والتقريب^(٤)... ، ونحسب أنه ليس من البحث الموضوعي في شيء أن نرى في استصفاء لغة قريش أن القرآن نزل بها، ففي القرآن من لهجات العرب الأخرى ألفاظ غير قليلة... ، ولغة القرآن بعد هذا حين يقال: إنها لغة الحجاز أو قريش هي اللغة نفسها التي نُقِلَتْ بها أشعارُ العرب وخطبُهم وأشعارُهم، ولقد صادف القرآن هذه اللغة الراقية المهذبة فزاد من ترقيتها وتهذيبها، فهذا معنى نزوله بلغة قريش»^(٥).

(١) صبحي الصالح - دراسات في فقه اللغة: ٧٢.

(٢) صبحي الصالح - دراسات في فقه اللغة من ١٠٩ - ١١١.

(٣) نفسه ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) صبحي الصالح - دراسات في فقه اللغة ١٠٩.

(٥) دراسات في فقه اللغة: ١١١.

والحكمة في ذلك إنما هي تخفيف وتيسير على هذه الأمة التي تعددت قبائلها
فاختلفت لذلك لهجاتها وطريقة نطقها، أما لغاتها نفسها فلا موجب لمراعاتها لأن
القرآن اصطفى ما شاء بعد أن صهره في لغة قريش التي تمثلت فيها لغات العرب
قاطبة لا لغات قبائل معينة ينتصر لها بعض العلماء بتعسف لا يؤيده دليل عقلي
ولا نقلي^(١).

ويبدو -لى- أنه كسابقه لم تقم عنده فكرة التفريق بين عربية فصحي مشتركة
استقت روافدها من كل لهجات قبائل جزيرة العرب وأجاداتها الطبقة المفكرة في
تلك الآونة وبين لهجة خاصة كانت شائعة في جهات مكة وما حولها من بلاد
الحجاز فاعتبرها صورة واحدة، وقال بذات مرة وبذلك أخرى.

ما تقدم هو بعض ما قيل في حقيقة تلك اللغة العربية المشتركة التي سميت -
فيما بعد- بالعربية الفصحى، وكل منها يقوم على مجموعة من الحجج ويستند
على جملة من الحقائق، غير أن بعضها لا يمكن الركون إليه في الاهتداء إلى حقيقة
هذه اللغة العربية الفصحى، ولا كيف تكونت، فقد أصبح البحث عن ذلك ضرباً
من المحال بعد أن ضاع من مراحل العربية الأولى ما قد يهدينا إلى جذورها
وأصولها القديمة ووصلت إلينا ناضجة كاملة متمثلة في لغة القرآن الكريم وما صحَّ
من آثار الجاهليين التي لا تتجاوز في تاريخها قرناً ونصفاً قبل الإسلام.

بيد أن مما لا يمكنني أن أجادل في إمكان حصوله أن العرب كانوا قبل ظهور
الإسلام شعوباً وقبائل مختلفة ولكل منها لهجتها الخاصة بها وعاداتها الكلامية التي
تلتزمها في النطق وطريقة الأداء، «ورغم تلك اللهجات نرى أنه قد يحدث توحيدٌ
بين لهجات القبائل العربية فتتكون لهم لغة نموذجية أدبية مشتركة تشمل جميع
البيئات اللغوية، ويحاول أبناء الأمة إجادتها وإتقانها، وكلما تمكنت منها الألسنة
ازداد شيوخها، ويتبع ذلك انكماش في اللهجات الأخرى واقترب بعضها من
بعض فلا يبقى من خصائصها على مرور الزمن إلا القليل^(٢)، وتلك اللغة

(١) صبحي الصالح- مباحث في علوم القرآن: ١١٣.

(٢) إبراهيم أنس- من أسرار اللغة: ٣٧ بتصرف.

النموذجية هي التي التزمتها الطبقة المفكرة من أمة العرب في المجال الجديّ من القول، وعن طريقها وصل إلينا بعض الآثار الأدبية من شعر ونثر جاهليين.

وهذا ما يؤكد أن الإسلام حين ظهوره قد «صادف لغة مثالية مصطفاة جديدة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم، فزاد من تلك الوحدة وشدّ من أزرها بنزول قرآنه بلسان عربي مبين»^(١).

ومع ذلك ظلت آثار لهجاتهم الخاصة بهم عالقةً بألستهم يتحامونها -قدر الإمكان- ولو في المجال الجديّ من القول، واستمر الحال على تلك الصورة طيلة قرن ونصف قبل الإسلام وهي الفترة التي جاءتنا أنباؤها وقبل ذلك أيضاً مما لا نعلم عنه إلا مجرد الظن، لكننا مع ذلك نظل معتقدين بأن ما تحقق لهذه اللغة في فترتها التي علمنا من أخبارها شيئاً عنها لا بد أن قد تحقق لها أيضاً في فترات مضت متى توافرت دواعيه، فما اجتمع هؤلاء القوم من قبائل مختلفة في مكان واحد كالحج والأسواق والمتنديات وأماكن المحاكمات وفصل المنازعات إلا وكانوا مضطرين إلى استعمال لغة عامة يفهمها جميعهم ويعبرون بها عما يريدون قوله وقد فصلنا القول عن ذلك فيما سبق من الحديث.

(١) مباحث في علوم القرآن ١١٤ . بتصرف.

مظاهر اختلاف اللهجات العربية

مما انتهى إلينا من كلام العرب نرى أنه قد توزّع من حيث فصاحته وشيوع استعماله بين جميع العرب أو اختصاصه ببعضهم دون بعض إلى أقسام:

أحدها- اتفق جميع العرب على فصاحته بعد أن اشتركوا -ولا سيما الخاصة منهم- في وضعه -كما بيّنا سابقاً- بحيث أصبح مقياساً للغة الفصحى، وبمقدار القرب منه أو البعد عنه يكون مبدأ التفضيل والحكم لهذا القول أو ذاك بالفصاحة أو عدمها، ومن أجل ذلك التزمه الفصحاء من العرب في المجال الجديّ من القول، وصاغوا به فنون التفكير عندهم، ولجأوا إليه في المناسبات والمواسم التي كانت تجمعهم على صعيد واحد، وهذه هي العربية الفصحى وإليها ينصرف الكلام العربي الفصيح إذا أطلق من غير نسبة إلى قبيلة بعينها.

ثانياً- استعمالات هي في الحقيقة خاصة ببعضهم إلا أنه كثّر الذين يتكلمون بها فدخلت ضمن الفصحى من كلامهم، فقد أدّى تفرّق قبائلهم في أنحاء عديدة من شبه الجزيرة العربية مع احتفاظهم بعاداتهم الكلامية وطرائقهم الخاصة في النطق، إلى جانب مسيرة الاستعمال العام الذي التزمه فصحاء العرب إلى تساوي الأمرين عندهم بحيث إن اتباع أحدهما جارٍ في الفصاحة مجرى الآخر، فلكل منهما قياس متّبع لاسيما وأن أصحاب هذا الفصحى عدد كثير وخلق من الله عظيم، وإنما يقاس بقاء اللغة وانتشارها -عادة- ببقاء وكثرة أعداد من يستعملها.

ثالثاً- استعمالات نصّ على أنها خاصة بقبيلة بعينها درجت عليها والتزمتها في حديثها العادي وشؤونها اليومية فإذا ما جدّ الجدّ تخلّوا عنها ليلتزموا اللغة النموذجية ويسيروا على نهجها في مخاطباتهم سواهم من قبائل العرب إذا ما جمعتهم بهم

المجامعُ، ولكن يحدث أحياناً أن تطرأ عليهم في أثناء ذلك بعض سماتهم اللهجية التي يلتزمون بها فيما بينهم داخل بيئاتهم، فجاءت مبعثرة هنا وهناك.

وجامعوا لغة العرب عندما بدأوا يجمعونها لم يفرقوا بين استعمال شاع عند كل قبائل العرب وبين مظهر لهجي اختصت به قبيلة بعينها ولم يأخذ طابع الشيوخ وكثرة الاستعمال إلا نادراً.

ويبدو أن ذلك لم يكن في مقصودهم البحث عنه وتمييز مظاهره وإنما كان همهم جمع اللغة كيفما اتفق، ومع ذلك فما أهملوا قط في الإشارة إليه والنص على أصحابه كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فحظينا من وراء ذلك على عدة مظاهر لهجية ساقوها لنا في مناسبات اقتضتها وأخرى جاءت عرضاً في قصة تُحكى أو رواية أُخذت عن بعضهم.

ومن تلك المظاهر اللهجية ما يتعلق بالنواحي الصوتية والصرفية، والنواحي النحوية والدلالية أيضاً.

ففي النواحي الصوتية نجد:

- ظاهرة تحقيق الهمز وتسهيله:

فقد نقل سيبويه: «أن بني تميم يحققون الهمز حيث أتى، ويسهل بعض الحجازيين الهمزة، ويدلون بها من جنس حركة ما قبلها»^(١).

وفصل أبو زيد هؤلاء القوم فذهب إلى «أن أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون، ووقف عليها عيسى بن عمر فقال: لا آخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا»^(٢).

وبالهمز قرأ نافع في كل من «النبي، ونبي، والنبيين، والنبيون، والصابئين، والصابئون»^(٣).

(١) الكتاب ٢: ١٦٣.

(٢) ابن منظور- لسان العرب ١: ١٤.

(٣) شرح الشاطبية ١٥١، الإنحاف ١٣٨.

وقرأ عاصم «إن يأجوج ومأجوج» بالهمز فيهما، وقرأوا إلا حمزة «هزؤا» حيث وقع، و«كفؤا» بالهمز فيهما وصلا ووقفاً^(١).

وقرأ ابن كثير المكي بالهمز في قوله تعالى «قسمة ضيزى»^(٢). وبالهمز قرأ الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير: سأل سائل: «بهمزة مفتوحة بعد سين «سأل»»^(٣).

وقرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة وخلف وحفص بالهمز في «نار مؤصدة»^(٤).

وحقق ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وروح في مواضع «أئمة» في القرآن^(٥).

وحقق الكوفيون وابن عامر وروح الهمزة الثانية في قوله تعالى «إنا لتاركوا» و«أأنك لمن» و«إذا» وحقق القراء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو وجعفر ورويس «أنزل عليه الذكر» «ألقي الذكر عليه»^(٦).

وبالتأمل فيمن نسب إليه ظاهرة التحقيق من هؤلاء القوم نرى أن معظمهم كانوا من قرأ الكوفة وبعض قراء الحجاز ونحن نعلم أن الكوفة كانت متأثرة بقبائل وسط وشرقي الجزيرة وهم ممن أثر عنهم تحقيق الهمز.

أما من حقق من الحجازيين - وهم أقلية - كابن كثير في بعض طرقه، ونافع المدني فيما روى عنه فيبدو أن قراءتهما قد جاءت تحقيقاً للهجة مكة وبعض أهل الحجاز من يميلون إلى همز بعض الكلمات^(٧).

أما المُسهِّلُون من العرب: فكانوا يميلون إلى إبدال هذه الهمزات حروف مد من جنس حركات ما قبلها أو حذفها، وبإبدال الهمزة الساكنة ياء أو واو أو ألفا بعد كسر أو ضم أو فتح قرأ أبو جعفر المدني في نحو: يُؤْمِنُونَ - وَبِئْسَ - فَاتُّوهُنَّ وكل ما جاء من ذلك سوى أحرف قليلة.

(١) شرح الشاطبية ١٥١.

(٢) النشر ١: ٣٩٤ وما بعدها، الإتحاف ٤٠٣.

(٣) شرح الشاطبية ٢٩٦.

(٤) النشر ١: ٣٩٥، الإتحاف ٤٤٣.

(٥) الإتحاف ٥٠.

(٦) النشر ٣٧٤.

(٧) أبو زرعة - حجة القراءات ٥١ وما بعدها - تحقيق سعيد الأفغاني.

وكان أبو عمرو إذا قرأ في الصلاة أو أدرج قراءته أو قرأ بالإدغام لهم يهمز كل همزة ساكنة سواء كانت فاء أو عينا أو لا ما إلا أن يكون سكون الهمزة للجزم^(١).

وقرأ باقي القراء غير عاصم بغير همز في «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» وقرأ حفص «هَزُوءًا» في «هَزُوءًا» بالإبدال حيث وقع من القرآن^(٢).

وقرأ أبو جعفر المدني: بحذف الهمز مع ضم ما قبلها في نحو: مُسْتَهْزِئُونَ وَالصَّابِئُونَ، وَمُتَكَبِّرُونَ، وَمَالِئُونَ، وَلِيَوَاطِئُونَ، وَيُطْفِئُونَ، وَقُلْ اسْتَهِزُّوا، وما إلى من ذلك^(٣).

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر «سال» بألف، قال الزمخشري: هي لغة قريش يقولون: سلت تسال وهما يتسايلان، ورووا عن حسان المدني:

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ اللَّهِ فَاحِشَةً ظَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ
بإبدال الهمزة من «سأل» حرف مد^(٤).

ويذهب بعضهم إلى أن إبدال الهمزة من «الَلَّيَّ يَسْن» ياء في قراءة البزى وأبي عمرو إنما جاء على لغة لقريش^(٥).

وقرأ الحرميان وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من قوله تعالى: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ وهي لغة أهل الحجاز الذين لا يرون الجمع بينهما «الهمزتين» طلبا للتخفيف^(٦)، وسهل نافع المدني وأبو عمرو وابن كثير المكي وأبو جعفر ورويس الهمزة الثانية من مواضع «أُتِمَّةً» في القرآن^(٧).

وكذا رووا عنهم في تسهيل الهمزة الثانية^(٨) من ﴿أَنْنَا لَتَارِكُوا﴾ [الصافات: ٣٦] «أَنَّكَ لَمِنْ» و«إِذَا» وهو مذهبهم أيضا في تسهيل الثانية من

(١) النشر ١: ٣٩ وما بعدها، التجهيز والتيسير ٥٨ وما بعدها.

(٢) الالتحاف ١٣٨. (٣) النشر ١: ٣٩٧.

(٤) الالتحاف ٤٢٣، شرح المفصل ٩: ١١٤.

(٥) النشر ١: ٤٠٤، الالتحاف ٤١٨، البحر ٧: ٢١١.

(٦) النشر ١: ٣٦٣، البحر ١: ٤٧.

(٧) النشر ١: ٣٧١. (٨) نفسه ١: ٣٧١.

﴿أُزْنِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [ص: ٨] و﴿أُؤْلِي الذِّكْرَ عَلَيْهِ﴾ [القمر: ٣٥] وجميع من ذكرناهم من هؤلاء القُرَّاء غير حفص ورويس هم من قراء الحجاز^(١)، وهى ممن عَزَى إلى أهلها تسهيلُ الهمز وتليينه.

ولعل ميل أهل البادية إلى الأصوات الشديدة الجلدة هو الذى دفعهم إلى تحقيق الهمز كالذى عرف فى نطق قبائل وسط الجزيرة وشرقيها حيث إن الهمزة صوتٌ حنجري انفجاري وهو مما يناسب البيئة البدوية في حين أن أهل المدن وسكان الحواضر يميلون بطبعهم إلى الأصوات اللينة.

ظاهرة الاختلاف فى حركات الكلمة:

ويمكن النظر إليها من زاويتين:

١ - الاختلاف فى بنية الكلمة:

ومن ذلك نحو ماجاء فى لهجة قيس فى رِفْقَة، وسائر العرب على رُفْقَة^(٢) ونسب إلى هذيل أنهم يقولون «نِعَم» فى «نعم» وهى لغة سائر العرب^(٣).

كما عَزَى إلى كنانة وأشياخ قريش أنهم يقولون: «نِعَم» فى «نعم» وفتح النون والعين لغة باقى العرب^(٤).

وقال أبو الفتح: نُشْرًا تخفيف «نُشْرًا» فى قراءة العامة، والتثقيب: أفصح لأنه لغة الحجازيين والتخفيف فى نحو ذلك لتميم^(٥).

ونقل سيبويه أن بكر بن وائل وناسا كثيرا من بني تميم يقولون فى نحو: فَخَذْ وَكَبَدْ وَعَضَدْ وَكَرَمْ وَعِلَمْ: فَخَذْ وَكَبَدْ وَعَضَدْ وَكَرَمْ وَعِلَمْ^(٦).

ويعتقد أن منه قراءة أبى عمرو: ورسَلنا ورسَلكم ورسَلهم وسَبَلنا^(٧).

بإسكان السين والباء فى الجميع.

(١) ابن الجزرى - التحبير والتيسير: ٢١٦، حجة القراءات: ٥٤.

(٢) المخصص ٩٢: ١٥. (٣) التحبير والتيسير ٩٤، الكتاب ٢: ٤٠٨.

(٤) شرح كلا وبلى ونعم: ١٠٧ وما بعدها. (٥) ابن جنى - المحتسب ١: ٢٥٥.

(٦) الكتاب: ٢: ٢٥٧ وما بعدها. (٧) التحبير والتيسير: ٩٥.

وقالوا: الصَّرْع لغة قيس، والصَّرْع لغة تميم^(١).

وقالوا: وَجَنَّة، ووَجَنَّة، ووَجَنَّة عن أهل اليمامة^(٢).

والعرب تقول: سَمٌّ، وَسَمٌّ الخياط، قال يونس: إنها لغة أهل العالية^(٣).

و«الوتر» بكسر الواو في العدد هي لغة أهل الحجاز وبني تميم وبها قرئ في السبعة، والفتح فيها لغة أهل العالية وسائر العرب^(٤).

٢- الاختلاف في بناء الكلمة:

ومن الثانية نحو ما ورد من اختلاف لهجات العرب في هُوَ وَهِيَ ففتح الواو والياء فيهما لغة جمهور العرب، وبذلك قرئ في السبع^(٥) إلا أنه قد حكى عن قيس وأسد أنهما يسكنان الواو والياء فيهما^(٦).

أنشد قطرب:

وَكُنَّا إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ كَرِيهَةً فَقَدْ عَلِمُوا أَنِّي وَهُوَ فَتَيَانِ

وقال آخر: حَبْدًا هِيَ مِنْ خَلَّةٍ لَوْ تُحَابِي

وهمدان تشدد آخرهما^(٧) أنشد قطرب:

وَأَنَّ لِسَانِي شَهْدَةٌ يُشْتَفَى بِهَا وَهُوَ عَلَى مَنْ صَبَّهَ اللَّهُ عَلَقَمُ

وقول الآخر: وَهِيَ مَا أُمِرَتْ بِاللُّطْفِ تَأْتِمِرُ

وقريب من ذلك ما ورد في بعض الأسماء الموصولة نحو: الذي والتي^(٨).

فالذي عليه جمهور العرب إثبات الياء فيهما ساكنة إلا أنه قد ورد عن بعض العرب تشديد الياء فيهما^(٩)، ومن ذلك قول الشاعر:

(١) المخصص ١٥ : ٧٤ .

(٢) نفسه ١٥ : ٩٣ .

(٣) نفسه ١٤ : ٢١٨ .

(٤) النشر ٢ : ٢٠٩ . سراج القارئ المبتدئ ٣٤٩ .

(٥) الهمع ١ : ٦١ ، التسهيل ٢٦ .

(٦) الهمع ١ : ٦٠ ، شرح المفصل ١ : ٩٧ ، شرح الكافية ٢ : ١٠ .

(٧) التسهيل ٣٣ .

(٨) الإنصاف ٢ : ٦٧٥ .

قال العجاج:

بعد اللتيا اللتيا والتي دافع عني بنقيير موتي
وقال آخر:

وَلَيْسَ الْمَالُ فَاعْلَمُهُ بِمَالٍ -وإن أغناك- إلا للذي
يُرِيدُ بِهِ الْعَلَاءَ وَيَصْطَفِيهِ لأقرب أقربيه ولقضي
ومن حذف الياء فيهما قوله^(١):
فَظَلْتُ فِي شَرٍّ مِنَ اللَّذِّ كَيْدًا كاللذ تزبي زبيّة فاصطيذا
وقال قيس العكلي^(٢):

وَأَمْنَحُهُ اللَّتْ لَا يَغِيبُ مِثْلُهَا إذا كان نيران الشتاء نوائما

٣- ظاهرة التوافق الحركي:

ولعل أهم ما يمثل ذلك ما عُرفَ عن ظاهرة الإمالة في لهجات بعض القبائل العربية ولا سيما البدوية منها فقد أدت رغبتهُم في سرعة النطق إلى نشأة ضرب من تجانس أصوات الكلمة وتناسبها^(٣)، وذلك لأن اللسان يرتفع بالضم وهو يقتضى تصعدا واستعلاء وينحدر بالإمالة والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع فإذا أملت الألف قربت من الياء وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة فتصير الألف من نمط واحد في التسفل والانحدار^(٤)، ومن ثمّ أمال حمزة والكسائي وخلف في قراءات القرآن كل ألف منقلبة عن ياء حيث وقّعت في كتاب الله سواء كانت في اسم أو فعل^(٥).

(٢) الأزهية ٣٠٣.

(١) الخزانة ٢: ٢٩٨.

(٣) من بحث للدكتور: عبدالغفار هلال عن تفسير بعض مشكلات الفصحى -مجلة كلية اللغة العربية ع ٦

ص ١٥٠.

(٤) النشر ٣٥: ٢، سر الصناعة ٥٨: ١.

(٥) النشر ٣٥: ٣.

ووافقهم أبو عمرو من جميع ما تقدم على ما كان فيه راء بعدها ألف مماله بأى وزن كان بل أكثروا من ذلك فأمال الكسائي كل ما كان قبله هاء التانيث وقال: إنها من طباع العربية^(١).

وقد ألفت هذه الإمالة عن قبائل شرقى الجزيرة ووسطها فهي لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس ومن وراءهم^(٢)، ووجدت في كلام أكثر أهل الأمصار لأنها خفيفة على لسانهم سهلة في طباعهم.

ومن التناسب بين الأصوات ما يعتمد إليه بعض العرب من إشماع الضمة كسرة والكسرة ضمة في بعض ما روي عنهم فقد ضم كثير من قيس وعقيل ومن جاورهم وعامة بنى أسد أوائل عين الفعل اليائى العين نحو: قِيلَ، غِيصَ، حِيلَ، سِيءَ، سِيئَتَ، جَبِيءَ، سِيَقَ.

وهى قراءة الكسائي وهشام وافقهما نافع وابن ذكوان في سِيءَ، وَسِيئَتَ، وزاد ابن ذكوان حِيلَ^(٣).

وأخلصت حركات أوائل بعض هذه الأفعال الثلاثية التي عينها واو أو ياء فقلبت واوا فى مثل: يَبِيعَ، حِيَكَ، وأنشدوا:

لَيْتَ وَهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًا لَيْتَ لَيْتَ شَبَابًا بُوعَ فَاشْتَرَيْتُ
وقال آخر:

حُوكَتَ عَلَى نِيرِينَ إِذْ تُحَاكُ تَخْتَبِطُ الشَّوْكَ وَلَا تُشَاكُ
وقد عَزِيَتْ إِلَى هذِيلَ وَبَنِي فَقْعَسَ وَبَنِي دَبِيرَ^(٤).

ولعله لضرب من هذا التجانس وذلك التناسب بين أصوات بعض حروف الكلمة ما نراه من إتباع بعض الحركات لبعض فى منطق قوم من العرب، إمّا لأن الإِتباع أخفُّ على اللسان من جهة النطق وإمّا لِسَبَبٍ آخر كأنه يكون خشية الانتقال من وضع كان اللسان فيه إلى وضع آخر سيصير إليه فقد نقل سيبويه عن بني أسد

(١) النشر ٢: ٤٠.

(٢) من بحث عن بعض مشكلات الفصحى د. عبدالغفار هلال نشر بمجلة كلية اللغة العربية ع ٦ ص ١٥٠.

(٣) البحر ١: ٦١.

(٤) شرح التصريح: ١: ٢٩٥، البحر ١: ٦١.

وبني تميم أنهم يقولون: اضْرَبِ ابْنَكَ فحركوا الباء وهو غير متحرك تقريبا له من حركة الهمزة المكسورة وأتبعوا حركة الراء المضمومة لحركة الدال المكسورة كراهية للضمّة بعد الكسرة لأنه ليس من الكلام فَعُلْ فقالوا: الرَّدَى في الرَّدُوْ، وقالوا: من البُطُوْ، ورأيت البُطُوْ، فقبروا حركة الطاء من الباء لأنه ليس في الكلام «فَعُلْ» وقد نسبوا ذلك إلى بعض تميم^(١).

وأُتبع ناس من بكر بن وائل الكسرة الكسرة حيث كانت حرف إضمّار وكان أخف من أن يُضَمَّ بعد أن يكسر وهي رديئة، قال سييويه سمعنا أهل هذه اللغة يقولون:

وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٍ مِنْ الدَّهْرِ: رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا
كما نسب إلى قوم من ربيعة أنهم يقولون: مِنْهُمْ ضَمّة الهاء كسرة إتباعها لكسرة الميم حين لم يكن المسكن حاجزاً حصيناً^(٢).
وعزي إلى بعض تميم أنهم يقولون: رُدُّه في رده فأتبعوا حركة الدال لحركة الهاء المضمومة^(٣).

٤- إبدال بعض أصوات الكلمة من بعض:

فقد يميل بعض العرب تحت تأثير الرغبة في بيان الصوت ووضوحه إلى إبدال صوت مجهور من آخر مهموس، وشديد من رخوى وصائت من صامت. . إلخ.
نقل عن بعضهم أنهم يقولون: أَفْعَى في أَفْعَى، وَحَبْلَى في حَبْلَى، وكذلك كل ألف في آخر الاسم.

وتقول فزارة وناس من قيس وبعض طيء: أَفْعَوْ في أَفْعَى بقلب الألف واوا^(٤).

وتقول تميم في الوصل هذِيْ فلانة بإبدال الهاء ياء وناس من بني سعد يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف وذلك لخفاء الياء عندئذ فيقولون: عليج وعربانج وفقيمج. . في علي وعرباني وفقيمي^(٥).

(٢) الكتاب ٢: ٢٦٤.

(٤) الكتاب ٢: ٢٨٧.

(١) الكتاب ٢: ٢٨٦.

(٣) الكتاب ٢: ٢٦٢.

(٥) الكتاب ٢: ٢٨٨.

وناس من تميم وربيعة يبدلون مكان الكاف المؤنثة شيئا فيقولون: انش ذاهبة.
وبعض أهل اليمن يجعلون الكاف مطلقاً شيئا^(١).

ونسبوا إلى تميم أنها تقلب العين من نحو «مَعَهُمْ وَمَعَ هَؤُلَاءِ». حاء فيقولون:
مُحْمٌ، ومَحَاوِلَاءُ^(٢).

وبالمقابل نسبوا إلى هذيل قلب الحاء عينا في «حتى»^(٣).

وقد قرأ بها ابن مسعود في «حتى حين».

ونجد قيسا وتيمما تقلب الهمزة المبدوء بها عينا فيقولون:

عَنَّاكَ فِي «أَنَّكَ»، وَعَسَلَمَ فِي «أَسْلَمَ»، وَعُدُنْ فِي «أُذُنْ»^(٤).

ومن ذلك الاستنطاء أيضاً وهو في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس
والأمصار تجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء كأنطى في أعطى^(٥).

وبالتأمل فيمن نسبت إليهم هذه الظاهرة نرى أنها قد عزيت إلى قبائل بدوية
اتخذت من الصحراء موطناً لها وهي أميل إلى إيضاح الأصوات والجر بها.

٥- ظاهرة المماثلة بين بعض أصوات الكلمة؛

وتميل بعض اللهجات العربية ولاسيما البدوية منها إلى المماثلة بين بعض أصوات
الكلمة، فيبدل لأجل الحرف المجاور أشبه الحروف به مخرجاً، ومن ذلك مثلاً قول
بني العنبر من تيم: صُبْتُ وَصَبْتُ وَالصَّمْلَقُ فِي سَقْتِ وَسَبَقْتِ وَالسَمْلَقُ، وما ذلك
إلا لأن القاف من أقصى اللسان وتتصعد إلى الحنك الأعلى فأبدلوا من موضع السين
أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد وهي الصاد لأن الصاد تصعد إلى
الحنك للإطباق، وهذا شائع في لهجة هؤلاء مع الطاء والغين والحاء أيضاً إذا وقعت
بعد السين أنى كان موقعها من الكلمة أثنائية أم ثالثة أم رابعة إذا كن بعدها فيقولون:
صَلَخَ، وصَاطِعَ، وصَالِغَ فِي صَلَخَ، وساطع، وسالغ^(٦).

(١) شرح الكافية ٢: ٤٠٩، الصاحبي: ٣٤، المزهري ١: ٢٢١ وما بعدها.

(٢) الكتاب ٢: ٤١٣. (٣) المزهري ١: ٢٢٢.

(٤) نفسه ١: ٢٢١ وما بعدها. (٥) نفسه ١: ٢٢٢.

(٦) الكتاب ٢: ٤٢٧ وما بعدها.

وماثل بعض فصحاء العرب بين الزاي والدال فأبدلوا من الصاد إذا أتت بعدها دال زايا فقالوا: زَدَقَ، وَفَزَدَ، وَمَزَدَرَ فِي صَدَقَ وَفَصَدَ وَمَصْدَرٌ، وَلَعَلَّ مَا دَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَقْرَبُوا الصَّادَ وَيَبْدِلُوهَا زَايَا هُوَ الْمِثَالَةُ بَيْنَ الزَايِ وَالْدَالِ وَحَتَّى يَكُونَ عَمَلُهُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ وَلَيْسَتْ عَمَلُوا أَلَسْتَهُمْ فِي ضَرْبٍ وَاحِدٍ^(١).

ويمكن أن يلحق بذلك ما عمد إليه بعض العرب رغبة في التماثل حين أبدلوا من تاء ضمير الفاعل إذا وقعت بعد الدال والزاي دالاً في نحو: جَلَدْتُ مِنْ جَلَدْتُ، وَجَزَدْتُ فِي جَزْتُ^(٢).

(١) الكتاب ٢ : ٤٢٦ .

(٢) تاج العروس : ٢ : ٢٨٦ .

النواحي الصرفية

١- الاختلاف في وزن الكلمة العربية:

اختلف منطق قبائل العرب في «فَعَلَ وَأَفْعَلَ» فاستعمل بعضهم «فعل» واستعمل آخرون «أفعل» وتعاوروا إحدى الصيغتين في التعبير عن الأخرى في بعض الأحيان.

فقد ورد عن أهل الحجاز أنهم يقولون: أَسْرَى بِالْأَلْفِ عَلَى حِينٍ أَنْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ يَقُولُونَ: سَرَى مَجْرَدًا^(١)، وبلهجة الحجاز جاء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] وبلهجة سائر العرب ورد قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَسْرُ﴾ ومرج لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد فإنهم يقولون: مرج، وبلهجة أهل الحجاز جاء قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾^(٢) وألته لغة تميم، وأهل الحجاز يقولون: لَاتَهُ بغير ألف. وَغَدَرْتُ الصَّبِيَّ: إِذَا خَتَنَتْهُ - لغة أهل الحجاز، وغيرهم من العرب يقولون: أَغْدَرْتُهُ^(٣).

ويترتب على ما أورد بعضه هنا - وما سنستقصي أكثره في موضعه من القسم الثاني من المبحث - بروز اختلافات في بنية الكلمة الصرفية فمن يقول أَضَاءَ فِي ضَاءَ الْقَمَرِ محتاج إلى زيادة الألف في صيغة الفعل «فعل» وهذا بخلاف من لغته ضاء مجردة منها.

٢- الاختلاف في إبدال حركات الكلمة:

وهو من نوع الاختلاف الذي يؤدي - كسابقه - إلى تَغْيِيرٍ فِي وَزْنِ الْكَلِمَةِ الصَّرْفِي كقول هذيل: جَوَزَاتٌ، وَيُضَضَاتٌ بِسُكُونِ الْعَيْنِ فِيهِمَا^(٤).

(١) الفيومي - المصباح المنير ١ : ٣٢٤.

(٢) البحر المحيط ٨ : ١٩٠ ، ٦ : ٤٧٨.

(٣) الزهر ٢ : ٢٧٦ ، المخصص : ١٥ : ٢٤٤.

(٤) الكتاب : ٢ : ٢٨٧.

ومن العرب قوم من بنى تميم وبكر بن وائل يسكنون عين الكلمة في نحو: عِلْمٌ، وشَرْفٌ، وفَخْدٌ، وعَضْدٌ... قصداً إلى التخفيف لثقل الانتقال من حركة إلى أخرى أثقل منها^(١) - وقد مضى ذكر ذلك.

٣- ظاهرة القلب المكاني:

وهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض وقد ورد ذلك كثيراً في لغة العرب، وهو في المعتل والمهموز أكثر منه في غيرهما، ومنه في اللهجات العربية ما نقله بعضهم:

أنهم يقولون: صاقعة في صاقعة.

قال الشاعر:

يَحْلُونُ بِالْمَقْصُورَةِ الْقَوَاطِعِ تَشَقُّقُ الْبُرُوقِ بِالصَّوَاقِعِ

وعند سائر العرب: صاقعة^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩].

وجمهور أهل اللغة على أن ذلك من القلب والصحيح أن أمثال ذلك لهجة لبعض العرب وهم تميم وبعض ربيعة، وهي قراءة الحسن^(٣).

وقال الكلايون: امْضَحَلَّ الشَّيْءُ بمعنى ذهب وهي عند باقي العرب اضمَحَلَّ.

وقالوا: اكْرَهَفَ في اكْفَهَرَّ... وقالوا: جَبَذَ في جَذَبَ وأَهْبَذَ في أَهْذَبَ^(٤).

وقالوا في المعتل والمهموز: نَاءَ يَنَاءُ في نَأَى يَنَأَى...

وَلَاَعَ وَهَاعَ وَشَوَاعَ في لَايَعَ وَهَائَعَ وَشَوَائَعَ، وَأَمْهَيْتُ الْحَدِيدَ في أَمَهَيْتُهُ، وَطَأَمَنَ في طَمَأَنَ، وَأَيْسَ في يَيْسَ، وَأَيْتَقَ في أَيْتَقُ^(٥)... إلخ.

وتقدم اعتبار بعض الباحثين مثل ذلك التقديم والتأخير في بعض حروف الكلمة على أنه جاء نتيجة التطور الصوتي نشأ على أصل الوضع.

(٢) البحر ١: ٨٤، الصاحبي: ٢٩.

(١) المخصص ١٢: ٢٢٠.

(٤) المخصص ١٤: ٢٧.

(٣) الالتخاف ١٣٠.

(٥) شرح الشافية ١: ٢١ وما بعدها.

٤ - ظاهرة الإعلال في كلام العرب؛ وينقسم إلى:

١ - إعلال بالقلب والإبدال: ومن أمثلته:

ورد عن أهل الحجاز أنهم يقولون: الوكَافُ، وبنو تميم الإِكَاف.

ويقول الحجازيون: وَكَدْتُ توكيداً، وْتِمِيمٌ أَكْدْتُ، وأهل الحجاز يقولون: وَخَذْتُ وْتِمِيمٌ تقول: اتَّخَذْتُ، وهذيل تقول إِشَاحٌ وإِعَاءٌ وإِسَادَةٌ وإِفَادَةٌ، وهي معلقة عند باقي العرب بالقلب واوا.

وأهل الحجاز يقولون: أَوْصَدْتُ الباب وْتِمِيمٌ أَصَدَّهُ^(١).

ونقل عن طيء أنهم يفتحون ما قبل الياء من «فَعَلَ» الناقص اليائي فيقولون «بَقَى» في «بَقِيَ» و«بَنَى» في «بُنِيَ» فتتحرك الياء حيثنذ ويفتح ما قبلها فتصبح قابلة للقلب والإبدال ألقاً^(٢).

وَعَضَاءَه - بالهمز - لغة أهل العالية، والعَضَايَةُ عند بني تميم^(٣).

٢ - إعلال بالحذف والإثبات: ومن أمثلته:

ثَوْبٌ مَصُورٌ، وَمِسْكٌ مَدُوٌّ، وَرَجُلٌ مَعُوذٌ، وفرس مَقُودٌ، وَمَقُورٌ، وَمَصُورٌ، والقياس حذف إحدى الواوين هنا والصحيح أنها الثانية، وقد نسبوا التامة الواوية إلى تميم. وصَحَّحُوا أيضاً اسم المفعول من اليائي العين فقالوا: مَبِيعٌ وَمَخِيوطٌ، وَمَطْيُوبٌ، ومَعْيُونٌ^(٤).

ومن الاختلاف بين لهجات القبائل العربية في الحذف والإثبات ما روي من قراءة الجمهور ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ﴾ [البقرة: ٢٦]. بياءين والماضي منه: استحيا، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ بعض القراء: يستحي بياء واحدة وهي لغة بني تميم يجرونها مجرى يَسْتَبِي، قال الشاعر:

أَلَا تَسْتَحِي مِنَّا مُلُوكٌ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنَا لَا يَبُوءُ الدَّمُ بِالْدَمِ

(١) المزهر ٣: ٢٧٦ وما بعدها، أدب الكاتب ٤٦١.

(٢) شرح الشافية ١: ١٢٤ وما بعدها.

(٣) المصباح المنير ٢: ٤٩٨.

(٤) الخصائص ١: ٩٨ وما بعدها.

وأكثرهم على أن المحذوف حينئذ إنما هو العين وليس اللام^(١).

٣- الفك والإدغام:

ونعني به: ميل بعض العرب إلى إدغام الحرفين المتماثلين والمتجاورين المتقاربين في بعضهما على حين لا يفعل ذلك فريق آخر من العرب، فإذا كان حرف من هذه الحروف في موضع تسكن فيه لام الفعل فإن أهل الحجاز يفكون الإدغام فيسكنون الثاني بعد أن يحركوا الأول منهما، أما بنو تميم: فيدمغون حينئذ فيسكنون الأول ويحركون الآخر لأنهما لا يسكنان جميعاً وهو قول غيرهم من العرب وهم كثير^(٢)، ومن ثم قالوا: إن الفك في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١] و﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ [النساء: ١١٥] و﴿وَلِيُمْلِلْ﴾ «يُحِبُّكُمْ» «يَمُدُّكُمْ» وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَإِغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ لغة أهل الحجاز، بينما الإدغام في جميع ذلك لغة تميم وبعض قبائل وسط الجزيرة العربية، قال جرير التميمي:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ غَيْرِ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا^(٣)
ونسبوا إلى تميم القلب والإدغام في المتقاربين في المخرج من نحو: «مَحْمٌ» و«مَحَاؤُلَاءِ» و«أَلَمْ أَحَدٌ إِلَيْكُمْ»^(٤).

الظواهر النحوية:

١- ظاهرة الإعمال والإهمال: ومن أمثلته:

أن بعضهم - وهم الكثير - يستعملون «إِنَّ» حرفاً ناسخاً فينصبون الاسم ويرفعون الخبر إلا أن قوماً من علماء اللغة حكوا أن بعض العرب ينصب بها الجزأين كقوله:

(٢) الكتاب ٢: ١٥٩.

(١) البحر ١: ١٢١.

(٣) الإقتان ١: ١٣٦، شرح التصريح ٢: ٤٠١.

(٤) ابن يعيش - شرح المفصل ١٠: ١٣٦.

إِذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلَتَاتِ وَلَتَكُنْ خُطَاكَ خِفَافًا إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدَا

وبالمثل أعملوا أخواتها «ليت ولعل» وقد نسبوا ذلك إلى تميم^(١).

وأهمل معظم العرب «إن» النافية حتى قال بعض النحاة:

إن إعمالها شاذ عند بعض العرب، لكنها لغة حُكِيتُ عن أهل العالية خاصة^(٢).

والعرب تجري القول مجرى الظن بشروط، إلا أن بني سليم خاصة تجريه مجرى الظن مطلقاً فيقولون: قَالَ مُحَمَّدٌ زَيْدًا قَائِمًا^(٣).

وعامة العرب تنصب بـ«أن» المصدرية الفعل المضارع إذا أتى بعدها، ولكن نقل أن بعض العرب يرفع ما بعدها تشبيهاً لها بـ«ما»، وبعض بني صباح يجزمون بها حيثنذ^(٤).

ومذهب معظم العرب هو النصب بـ«لن» للفعل المضارع ولكن ذكر السيوطي أنه قد حكى الجزم بها، وذكروا أن ذلك لغة لبعض العرب، وأنشدوا:

لَنْ يَخْبِ الْأَنْ مِنْ رَجَائِكَ مَنْ حَرَكَ مِنْ دُونِ بَابِكَ الْحَلَقَةَ^(٥)

٢- الاختلاف في الإعراب:

بعض العرب يلزم المثني الألف في الأحوال الثلاثة: الرفع، النصب، الجر، ويقدر الإعراب حينئذ بحركات مقدرة على الألف، ومنهم من يلزمه الألف والنون أيضاً ولكن يجعل الحركات ظاهرة على النون إحراء له مجرى المفرد^(٦)، وعلى ذلك قرأوا قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾^(٧) وأعمل الحجازيون «ما» النافية في نحو: مَا هَذَا بَشَرًا.

(١) الغني: ١: ٢٨٦. (٢) ابن هشام: شذور الذهب: ١٩٦.

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشموني ٢: ٣٧.

(٤) ابن يعيش - شرح المفصل ٩: ١٤٣، البحر ١: ١١٨.

(٥) الهمع ٢: ٤. (٦) خالد الأزهرى - شرح التصريح ١: ٨٧.

(٧) الصاحبي ٢٩.

وقد جاء القرآن طبقاً لها على حين أهملها التميميون، وهي أقوى قياساً، وإن كانت الحجازية أسير استعمالاً^(١).

ونقلوا عن بعض العرب أنهم كانوا يقرأون ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ وجمهور العرب على «الشَّيَاطِينُ» إجراء له مجرى غسلين ويقطين في الإعراب بالحركات على النون^(٢).

وروا عن بعض ربيعة أنهم يقفون بالسكون على نحو: رأيت زيداً فيقولون: رأيت زيد، وجميع العرب يقفون حينئذ بإبدال التنوين ألفاً، قال الشاعر:

إِلَى الْمَرْءِ قَيْسٍ أُطِيلُ السُّرَى وَأَخْذُ مَنْ كُلِّ حَيٍّ عَصَمَ^(٣)
وروا عن تميم أنهم يقولون: وهو يعلمكم «تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ» وَمَكْرَ السَّيِّئِ» بالسكون في الجميع وهي قراءة رويت عن أبي عمرو^(٤).

٣- ظاهرة الاختلاف في صوغ الجملة العربية:

ومن ذلك ما ورد عن بعض العرب أنهم يقولون: ضرباني أخواك وضربوني إخوانك، قال عبد الله بن قيس الرقيات:

تَوَلَّى قِتَالَ الْمَارِقَيْنِ بِنَفْسِهِ وَقَدْ أَسْلَمَاهُ مُبْعَدٌ وَحَمِيمٌ
وقال الفرزدق:

وَلَكِنْ دِيَا فِي أَبْوهِ وَأُمُّهُ بِحَوْرَانٍ يَعَصِرْنَ السَّلِيْطَ أَقَارِبُهُ^(٥)

وقيل منه: قراءة من قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحُوا الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦) وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣].

وقد نسبوا ذلك إلى بعض طيء وأزد شنوءة والحارث بن كعب^(٧).

(١) الخصائص ١: ١٣٠ وما بعدها.

(٢) البحر ٧: ٤٦.

(٣) الخزانة ٢: ٢٦٤.

(٤) الإتحاف ١٣٦، الهمع ١: ٥٤.

(٥) الكتاب ١: ٢٣٦ شرح التصريح ١: ٢٧٧.

(٦) البحر ٦: ٣٩٥.

(٧) مكي بن أبي طالب- إعراب مشكل القرآن- ٢: ٨١.

أما في الجانب الدلالي:

فهو ما نلاحظه بوضوح في لغة العرب على شكل الترادف، والاشتراك اللفظي، والتضاد، ويرى بعض علماء العربية الأوائل أن ذلك إنما نشأ نتيجة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب وأحيائها، فقد تضع إحدى القبيلتين أحداً الاسمين والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد أو لمعنى من غير أن يكون بينهما اتفاق ثم يشتهر الوضعان في إفادة المعنيين بلفظ أو بلفظين بعد أن يختفي الوضعان أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر^(١). ومحال أن يكون العربي قد أوقع لفظاً على معنيين متضادين بمساواة منه بينهما ولكن أحد المعنيين لحي من العرب والمعنى الآخر لحي غيره ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء^(٢).

فمن الأول مثلاً: ما روي أن في العسل ما يقرب من ثمانين اسماً منها: العسل، والضرب، والورس، والشهد، والمادي، والشراب، والمزج، والجني. . ومن أسماء السيف: الصارم، والقضيب، والصمصامة، والحسام، والمذكّر، والقاضب، والمهند، والهندواني. . ومثل ذلك ما روي من ألفاظ تطلق على معاني في مختلف شئون الحياة^(٣).

ومن الثاني: ما روي من الألفاظ في معان كثيرة: كلفظ العين، والأرض والهلال، وأسماء الطير. .

ومن كلام القبائل العربية: ما يقال من لفظ الألفت بمعنى الأحق في كلام قيس وبمعنى الأعسر في كلام تميم، السليط: عند عامة العرب الزيت، وعند أهل اليمن دهن السمسم^(٤). والهرء: بلغة أهل نجد الفسيل بعينه، وأهل البحرين زعموا أن الفسيل الطلع^(٥).

(٢) نفسه ١ : ٤٠١ .

(٤) الزهر ١ : ٣٨١ .

(١) الزهر ١ : ٣٦٩ ، ٤٠٥ وما بعدها .

(٣) نفسه ١ : ٤٠٧ وما بعدها .

(٥) ابن دريد - جمهرة اللغة ٣ : ٢٠٨ .

أما التضاد: فمن أمثلته: ما روي: أن أبا زيد قد روى السُّدْفَةَ في لغة تميم:
الظلمة، وبمعنى الضوء عند قيس، ولمقت الشيء: إذا كتبته عند عقيل، وسائر
قيس يقولون لمقته: بمعنى محوته.

وحكوا: أن وثبَ في لغة أهل اليمن: الجلوس، وأنها في لغة العدنانيين الطفر.
والجُون: الأبيض في لغة حي من العرب، والجون: الأسود في لغة حي آخر ثم
أخذ أحد الفريقين لغته من الآخر^(١).

(١) المزهر ١: ٣٩٤، ٤٠١.